عن ماهية القضية

في الجزء الأول دققنا في زعم احتكار القضية بصفتها الإسلامية، حاولت توضيح أن الجدال حول ماهية القضية وما إن كانت إسلامية أم لا يتطلب بالأصل تعريفاً لمعنى أن تكون القضية إسلامية، ولمعنى أن تكون أي قضية ليست كذلك. وأن القضية إسلامية فعلاً لكن المسلمين بالمجمل لا يعوّل عليهم ولذا على الفلسطيني أن يترك الأمل بإسنادٍ ملياري. المقدمة في الجزء السابق طرحتها كي أتيح للقارئ المجال للتفكر بهذه المسألة بشكل جدي دون أن يأخذ الهراء السائد وكأنه منطقي وقد تفوق على الردود المحتملة. لأن الواقع بعينه بعيد عن كل الكلمات ردّت على هذا الزعم، وكما أسلفت، أولئك الرافضين لأي تعريف آخر للقضية سينقلبون بشراسة على الفلسطيني إذا شكك بزعمهم دون التحرك الفعلي مما يشير إلى أن هناك خطباً ما في عقليتهم. لكن المقالة جاءت لتتعاطى مع القضية الفلسطينية على وجه الخصوص لا مع مفهوم القضايا الإسلامية خارج تقاطعها مع القضية الفلسطينية ولا لمخاطبة المختلين من الدوائر المختلفة.

من هذه المنطلق يندفع سيل أسئلة عن معنى "الفلسطينية"، نستطيع الابتداء ببدهية كي نختم شطراً من النقاش، هذه الكلمة تشير إلى مجموعة من البشر عاشت لفترة طويلة على هذه البقعة من الأرض المعروفة منذ الأزل بفلسطين. قد يكون من المغري للبعض ومن المهم للصهيونية أن يشككوا بهذه الهوية عبر الطعن ببعض التفاصيل، مثل الطعن في تكوين هذه المجموعة، أو توقيت الفترة المطلوبة للعيش في بقعة كي يصبح للإنسان الحق في امتلاكها وغير ذلك من اتهامات باطلة عن التفريط بهذه الأرض. بأي صورة جاء هو تشكيك ينضوي إلى مسألة الهويات المعقدة وهي مسألة تخص العالم كله عند تجريدها، فإذا أراد الشخص السير في ذاك الطريق عليه أن يتعامل مع الهويات بشكل عام لا أن يجعل من الهوية الفلسطينية مسألة غريبة واستثنائية في هذا السياق. مع الإقرار بأن القضية الفلسطينية تمنح المفكر مثالاً مفيداً للتعامل مع سؤال الهوية وما يندرج تحته من أسئلة بعمق أكبر، مثل السؤال عن الرابطة الوثيقة بين الإنسان والأرض.

نحن لا نكترث بالآراء الصهيونية التي تنظر إلينا كحيوانات بشرية، لكن تهمنا آراؤنا وآراء الأشقاء من العرب والمسلمين، والتي للأسف باتت بفعل كل هذا الظلم والمجازر تنصبغ بصبغة صهيونية. نعم حتى آراء الفلسطينيين صارت فيها لوثة صهيونية تفتت الهوية الفلسطينية وتحقق الحلم الصهيوني بالنيابة عنه، وما حلم الاحتلال سوى سلب هذه الأرض وما يتبع ذلك السلب من انتقاص حقوق الفلسطيني كلها دون استثناء، وأولها حق الحياة. إذ أثبت العالم المتواطئ مع الكيان أنه ينظر للفلسطيني كأنه لا يستحق الحياة، والإسراف في القتل في غزة لا يمكن بتره عن الظلم الواقع على الفلسطيني في أي مكان وإن كانت المقارنة تجعل الفلسطيني في بقعة خارج القطاع يبدو وكأنه يعيش في نعيم. أي أن الفلسطيني في غزة ذاق من العذاب والظلم ما يكفي حتى صار تمتع الفلسطيني في أي مكان بأي حق في دول غير دولته يبدو وكأنه امتياز ورفاهية، وصار مطالباً من الفلسطيني أن يصبح ضحية مثالية لا فقط في أعين الغرب حيث أن يقسم بأنه لا يرمي الشواذ من الأسطح، أو في أعين المسلمين حيث عليه أن يعتذر لأن طائفة من المسلمين ساندته، بل حتى في أعين الفلسطينيين أنفسهم حيث عليه أن يخرق القوانين الاجتماعية والعسكرية ويجيب المعضلات الأخلاقية في لمح البصر ليثبت فلسطينيته، وكأن الطعنة في ظهر غزة لا تعكس طعنات مختلفة في ظهر الشعب كله من تلك الدوائر.

إلى هذا المدى وصل الظلم ومن المؤسف أن الظلم قد جاوز المعقول وساهم في تشكل مجموعة مقيتة من الاتهامات ومجموعة خيالية من التوقعات مبنية على تجاهل الأحداث التي أوصلتنا إلى هذه المرحلة، وقد أدى سفك الدم بهذا الشكل والكم في حق مجموعة من الفلسطينيين إلى تحقيق معنوي لأحد الأهداف الرئيسية للصهيونية في تشويه معنى الهوية الفلسطينية، وبات الفلسطينيون أنفسهم ينتقصون من "فلسطينية" بعضهم. وبما أن هذه الحرب قد بلغت من الفظاعة ما بلغت حتى بدت كأنها الحرب الأولى على هذا الشعب، علينا أن نتروّى قليلاً ونذكّر الجميع وأنفسنا أولاً بأن هذا الشعب المضحي قد خاض معاركاً سابقة وتعرض لعدة مجازر، ولا يعقل أن نجعل دم كل الشهداء على طول الخط النضالي إلى اليوم يتبخّر عبر إعطاء الكيان المغنم الأخير وهو سحق الهوية الفلسطينية كلياً.

لكن ما هي هذه الهوية حقاً؟ ومن يُعَرفها؟ ما هي هذه الهوية التي تستدعي كل هذا الدم والتضحيات؟ سأشارك مع القارئ الإجابة المتواضعة التي توصلت إليها والتي لا ألزم أحداً بها، لكنني ألزم كل فلسطيني في الشتات أن يجيب مثل هذه الأسئلة لأنه بحاجة إلى إثبات وتثبيت هويته نظرياً وعملياً، على عكس الفلسطيني الذي لا يزال على أرضه ويُثبِت ويُثبّت هويته وجودياً. الهدف هو ليس الإمعان في تفتيت الهوية الفلسطينية وإنما معالجة الجروح العميقة كي تتمكن الفئات على اختلاف مواقعها وقدراتها السير في طرق منتهاها دولة فلسطينية على كامل الأراضي فداءًا لكل التضحيات وحفاظاً على مستقبل أبناء هذا الشعب. حتى لو ارتضينا مرحلياً ببعض الكيلومترات المربعة، ألم تكفي حفنة منها بتوجيه أشرس ضربة للكيان؟

الرغبة في الوحدة على هذا النطاق وعلى صغره ليست رغبة ساذجة تؤمن بأن المجموعة الفلسطينية مجموعة مميزة عن كل المجموعات البشرية وستجتمع على قلب واحد، علينا أن نتفادى استيراد المشاكل في المجموعات الأكبر وتطبيقها على مجموعتنا. على مر الزمن لقد قدم الفلسطينيون مفكرين من شتى الألوان وتحركت الفصائل في طرق متشعبة ومتناقضة، ولا معنى من إقحامهم في صندوق واحد.

اليوم يترأس المشهد الفلسطيني فصيلان مختلفان يقوّضان بعضيهما شرعياً وفعلياً، ثنائية نموذج الضفة وغزة قد ينطبقان نظرياً على بقية الفلسطينيين، الفلسطيني الذي يرضى بالاحتلال أقرب إلى الاستنتاج الفتحاوي حتى لو كان يعيش في أراضي ال48 أو خارج فلسطين،

أما الفلسطيني الذي يؤمن بالكفاح المسلح فهو أقرب إلى الاستنتاج الغزاوي حتى لو كان في الضفة. وأقول الفتحاوي مقابل الغزاوي لأنه ليس استنتاجاً ضفّاوياً، فهناك في الضفة من يكافح، وهناك في غزة عدة فصائل غير حماس تؤمن بالكفاح.

هذا الكلام يغطّي الجانب النظري لكن الواقع يشمل مجموعتان لا تتبعان مباشرة للاستنتاجين، ونظراً لأن حماس وفتح لا قدرة لهما على التحكم أو التأثير المباشر بالفلسطينيين في "الداخل" أو بالشتات في "الخارج". الشتات متروك بعد عدة هزائم ومجازر بحق إحدى الفصائل الفلسطينية المسلحة وترفّع الأخرى عن التدخل في شؤون الدول المجاورة. كما أُدركُ أن الخيانات بحق أهل غزة تعني بالضرورة أن هناك عدد من العملاء العلنيين والسريين في الداخل وفي الخارج من الذين بات تعليقهم على أعمدة الكهرباء شرطاً للتحرير. الرغبة، أو الضرورة، لوحدة الفلسطينيين تعتمد على تعريف أدق للهوية ليساهم في إجابة الأسئلة الأخلاقية عما يجب فعله. مبدئياً نستنتج من قرار العالم بغض الطرف عن الظلم الواقع في هذه البقعة دون غيرها أن على إقامة العدل بأي سلاح يقع بين يديه، من سكين مطبخ إلى صواريخ مصنعة يدوية تحت أشد حصار في التاريخ المعاصر، أي أن الاستنتاج الغزاوي كان الأصح. والسؤال الخاص بالشتات هو في كيفية تطبيق الاستنتاج الغزاوي عندما لا يكون العدو الصهيوني في متناول اليد.

استمد إجابتي لأسئلة ماهية القضية من عينين، من أرض فلسطين نفسها أرى أن غزة كانت تحت الحصار لسنوات وسنوات، وكان من الممكن أن تستسلم لكنها قررت أن تعاند وتتمرد على الكيان وتقلب العالم أجمع بضربة عسكرية أصبحت بصمة فلسطينية على وجه التاريخ البشري. كذلك كان من الممكن أن يفرّط المقاومون في الضفة بما يملكون من أسلحة شحيحة وحِسٍّ ثوري وأن يتقبلوا الاحتلال تفادياً لبطشه ليصبحوا بخنوع "الداخل"، لكنهم لم يبدلوا. وحتى لو نظرنا لمن بدّل في حركة فتح فهم في مرحلة ما كانوا ثواراً وقد ضحّى منهم الكثيرون. ما هو هذا الشيء الذي ضحّى ويضحي من أجله كل هؤلاء إن لم يكن الرغبة بالعيش في عالم عادل وأن تكون لشعبهم القدرة على تحقيق مصيرهم؟ هم لا يطالبون بعالم مثالي وإنما بالعدل الذي يمنح الفرد من الكرامة ما يكفيه.

هذا الإدراك وهذا السلوك هو في صميم الهوية الفلسطينية، السبيل الوحيد لاحترام تضحيات الشهداء، لأجل كل طفل قضى تحت الأنقاض، لأجل كل أسير يعيش في قطعة من الجحيم النفسي والجسدي، لأجل كل هؤلاء، من الحرام على أي فلسطيني أن يبدد التضحيات وأن يطبّع مع هذا العالم ومع هذا الكيان ويؤمن بأن العدل ممكن في عالم سامح هذا الكيان على جرائمه. أما الاستنتاج الفتحاوي فقد أثبت الكيان فشله لأن توقيع المعاهدات والتنسيق لم يوقف التمدد الاستيطاني والظلم، ويبدو أن مسألة تعريض الضفة لنفس الدرجة من العنف هي مسألة وقت لا أكثر. وبين هاتين المجموعتين هناك مجموعة لها ممثلون في الكنيست، وتحمل جوازات سفر مثل جوازات الصهاينة، وهم حتماً تحت ظلمٍ لا يطاق لأن الكيان الذي يفتك بغزة لا يعاملهم بلطف وسماحة، وإنما يعاملهم معاملة الرهائن، إلا أنهم لم يقدموا أي شيء يمكن تمييزه عن سلوك فتح كي نقول أن هناك استنتاجاً ثالثاً، فهم برضاهم على التعايش مع الكيان صاروا أدوات يغذونه ويعالجونه مما يسمح له بالقضاء على الهوية، مجدداً نجد أن منهجهم هو منهج وصل إلى الاستنتاج الفتحاوي لكن على عكس المسار الفتحاوي لم يكونوا في أي لحظة شوكة في حلق الاحتلال.

مقابل الأبطال في غزة والضفة هناك الخسيسون في المكانين، منهم العملاء الذين يتجسسون على أولئك الأبطال، والذين يترزقون من الوشاية ويقتاتون على دمهم، وهناك الأوباش الذين يلاحقون أي مناضل وإذا نالوا منه يسلمونه للأعداء أو يعذبونه بأنفسهم، وهؤلاء يفككون القنابل بأيديهم لحماية أمن اليهود. أي أن عمالتهم وصلت حد المخاطرة بأرواحهم للدفاع عن العدو المركزي للهوية حتى صارت هذه المجموعة مضرب المثل في الخيانة والعمالة، لذلك لا يمكن تعريف الهوية نظرياً بالعملاء لأنهم يساهمون في القضاء عليها.

قبل الوصول إلى استنتاج متعجل من عين الداخل لنعاين أصنافاً أخرى من الفلسطينيين خارج فلسطين، عودة لتعريف الجنسيات بارتباطها بالأرض يبدو أن الفلسطيني في الشتات يفقد بالتدريج "فلسطينيته"، ويمكننا كي ندرك خطورة ذلك أخذ أقصى الحدود لطيف هذه الهوية، بعض الفلسطينيين في الشتات وخصوصاً في الغرب وصلوا إلى مناصب مرتفعة نسبياً، منهم من صار سياسياً في عقر الامبراطورية الأمريكية ومنهم من صار أيقونة على البساط الأحمر، هؤلاء لا يخافون من قصف مباشر أو من احتمالية حمل أشلاء أبنائهم، وقد حققوا أحلام الكثيرين من أصحاب الجنسيات الأصلية في تلك البلاد، يصعب النظر إلى أحدهم وإلى أم مكلومة في غزة والتصديق بأنهم ينتمون إلى مجموعة واحدة، لكن هل ينتقص هذا من "فلسطينيتهم"؟

هنالك أحداث تتعلق بهذه النماذج من الفلسطينيين وهي تحتاج للمزيد من التفصيل التي لا تتسع لها هذه المقالة، لكن لدواعي منطقية لنتحدث نظرياً عن فلسطيني مجهول في دولة ما بعيداً عن أرض فلسطين، ولنعتبره من الأجيال التي ولدت خارج فلسطين ولم يتمكن من رؤية أرضه. هب أنه لم يتوقف عن محاولة نصرة قضيته بما تأتى له من إمكانيات متواضعة، لنفترض أنه اضطر للتضحية بشيء ما أيضاً ولم يمنعه ذلك من الإقدام لخدمة قضيته، لو وضعنا مثل هذا الفلسطيني مقابل ذاك الفلسطيني العميل، هل يمكننا حقاً أن نعطي العميل رصيداً أكبر من "الفلسطينية" فقط لأنه ولد على أرض فلسطين؟

قد يزاود الفلسطيني في الداخل -وأعني في أرضٍ فلسطينية لا فقط داخل حدود 48- على الشتات بحقيقة أنه بقي على أرضه، هذه النظرة تتجاهل حقائق تاريخية -مثل إيمان معظم النازحين بأنه نزوح مؤقت- ومعاصرة لو فكرنا بالسؤال عن الفارق بين الفلسطيني الذي خرج من قريته خوفاً من مجزرة قبل عقود والغزاوي الذي خرج من غزة لتفادي المجازر في هذه الحرب، وكذلك ما الفرق بين الفلسطيني

الذي نزح من مكان إلى مكان آخر داخل فلسطين وصدف أن المكان الآخر هو الأراضي التي احتلها الكيان في 67 مما اضطره للنزوح مرة ثانية والفلسطيني الذي صدف أنه نزح من مدينته أو قريته إلى غزة نفسها. كل المفاضلات بينهم في نظري تنم عن مقدار الألم الذي أوقعه الصهيوني أكثر من كونها مفاضلات منطقية أو أخلاقية. وهي مفاضلة تخدم المشروع الصهيوني أكثر من خدمتها للشعب الفلسطيني، لذلك لا يعقل لوم الشتات على هذه النقطة بالتحديد.

لكن الشتات ليس بريئاً وعليه حجم كبير من الملامة، ولا يجوز أن يتنكر لخطيئته أو أن يتعذر بحجج واهية. ولهذا السبب شرعت بكتابة هذه المقالة وكل المقالات سابقاً، بما فيها مقالات سبقت الطوفان بأعوام، فأنا مدرك منذ فترة طويلة أن هناك دور علي تأديته لخدمة القضية، وأظن أن هذا الاستنتاج الذي وصل إليه الكثير من الفلسطينيين في الشتات. ربما يكون الفرق هو في توقيت الإدراك وما يليه من استنتاجات ثانوية لكنني لا أرى كيف يمكن لأي فلسطيني في الشتات أن يسمي نفسه فلسطينياً دون أن يفكر ملياً بهويته وما يأتي معها من واجبات استثنائية لا بد وأن تفوق الواجبات التي يحملها أي إنسان سوي.

علينا إذاً أن نفرّق بين تعريفين للفلسطينية وأن نتنبه لفخ الرجل الاسكتلندي الأصيل، لأنه من المغري أن نتعامل مع مثل هذه المسألة بشيء من الشاعرية وأن ننزع هوية الفلسطيني العميل أو نمنح الفلسطيني في الخارج نجمة على جبينه، مما يسقطنا في مطلب الضحية المثالية. بناء على ما سبق من ملاحظات يمكن القول بأن هناك تعريفان للفلسطينية، أحدهما يشمل كل الفلسطينيين بغض النظر عن تصرفاتهم وأفعالهم، من أقذر جاسوس إلى أشرف مقاوم هم أبناء لنفس المجموعة، وهذه المجموعة هي بالتعريف المعاصر للدولة يعرفون بأنهم فلسطينيون وأي محاولة لسلب فلسطينيتهم لا تقوم إلا إذا طبقناها على كل الجنسيات، ففي كل الجنسيات هناك الخونة والأبطال، ومن كل الجنسيات أفراد يعيشون على أرضهم ومن ارتحل بنية الرجوع أو هاجر دون التنكر لأصله.

حتى عند التعامل مع مسألة الخيانة فعندما تعدم المجموعة الخائن هي لا تسلب جنسيته وإنما تقر بأنه بالأصل جزء منها، وأن جريمته هو أنه سلب المجموعة من أثمن ما تملك، ذاك الشيء الذي يجعلها مجموعة أصلاً، ولذا حق عليه العقاب. ولذلك أيضاً يشرع المقربون للخائن بالتبرؤ منه لإظهار ولائهم للمجموعة كلها. بعيداً عن الشاعرية يمكننا أيضاً الإشارة إلى أن الهوية بمعنى الجنسية أيضاً لا تهدد أبناءها بسحب الجنسية عند ارتكابهم أفظع الجرائم، ففي كل المجتمعات نجد أسوأ المجرمين وكل المجموعات تنظم نفسها بقوانين تنص على عقوباتهم، عقوبات لا تشمل النفي لأن مسألة النفي صارت صعبة في العالم منطقه دول قومية بحدود واضحة.

التعريف الآخر في الهوية الفلسطينية هو التعريف الذي يخص هذه القضية ويعطي كلمة الهوية بعدها الاستثنائي، فالهوية بالأصل هي ما تميز كل فرد وكل مجموعة، فإذا كان التعريف الأول يشير إلى الهوية بصفتها بطاقة تعريفية دولية، يشير التعريف الثاني إلى ما يميّز هذه المجموعة عن غيرها. وما يميز هذه المجموعة كما ذكرنا وكما نشاهد هو الاستنتاج الغزاوي، هو إقدامها على التضحية والتمرد واليقين بالنصر النهائي. هذا الكلام قد يبدو شاعرياً أيضاً لكنه بالإضافة إلى شاعريته يرمم ما يفقده الفلسطيني بفقدان الدولة بشكلها المعاصر. فلو امتنع الفلسطينيون عن التضحيات لن يقيموا دولتهم حقاً، وإن لم تقم دولتهم لن يعود للتعريف الأول قيمة أصلاً، وإذا سارعوا في تحقيق مطامع الصهيونية في سلب "الفلسطينية" سيمهد هذا لظلم أكبر وتفريط بالتضحيات السابقة والحالية، وبهذا التفريط لا يختلفون عن عملاء أوسلو. أما بالنسبة لليقين بالنصر النهائي فهو الشرط الذي يذكر الفلسطيني بأن تضحياته هي لغاية أسمى وأنها ليست تضحيات عدمية، لأنه في لحظة الشك بضرورة التضحية يفرّط بكل التضحيات، وإذا فرّط بكل التضحيات لم يعد لأي من تلك التضحيات معنى يذكر.

عن حصرية القضية

بالإضافة إلى التضحية والتمرد واليقين بالنصر النهائي، هناك ركن رابع يميّز الهوية الفلسطينية وهي في التضاد القِيمي مع الصهيونية. لاحظ أننا لو اكتفينا بالأركان الثلاثة يصبح المنطقي دائري، لأن السؤال بالأصل كان "لماذا تستدعي هذه الهوية التضحية؟" والإجابة بأن هذه الهوية تقوم على التضحية يجعل التضحية بعينها جوهر الهوية، وفي الحقيقة هذه الإجابة صحيحة لكنها عامة جداً، كل الهويات تتشكل عبر التضحيات والتمايز، في اللحظة التي تتعرض لها أي هوية لخطر يستند بقاؤها لإصرار أهلها على التضحية من أجلها. لكن الإجابة لا تكتمل دون فحص ما يميّز الهوية، وهو في الحالة الفلسطينية كما قلت: التضاد مع الصهيونية. هذا التضاد يحصل بدرجة ما بشكل تلقائي، لكن كماله يحتاج إلى وعيٍ به.

مثلاً لا أظن أن أي فلسطيني يشهد أهوال الحرب هذه يشعر بأي نوع من الرضا على العالم، قد يشعر بدفء وصدق المشاعر للشعوب لكنه أيضاً يواجه اللؤم والبغض من شرائح أخرى من الشعوب ذاتها، وقد يتساءل في حضرة الدم ما الفائدة من هذا التعاطف، وقد يتحول سخطه إلى نوع من العدمية التدميرية وحقد على العالم أجمع، لكن هذه الاحتمالية لم تتحقق في أي لحظة مضت حتى بعد أسوأ المجازر بحقه. هذا السخط مهما بلغ كان يعود دائماً للتركيز على العدو الصهيوني، وهنا يكمن الجانب السلبي (أي الناتج بتعريف سلبي للهوية)، فالفلسطيني لا يؤمن بأنه شعب مختار ولا يشعر بفوقية جينية، وإنما يسعى دائماً للوحدة مع الآخرين وما زال ينشدها. وكذلك في مسألة النفوذ نجد الفرق بين الصهيوني الذي أينما ارتحل عمل على استغلال الآخرين لخدمة الصهيونية، في المقابل نجد الفلسطيني في الشتات

يساعد الدول التي ارتحل إليها وفي الكثير من الأحيان يفعل ذلك على حساب قضيته. على المدى القصير هذا الفرق يعني ترك الخلل في ميزان القوى ولكنه على المدى البعيد -لاحقاً في هذه الدنيا بعد التحرير كما في يوم الحساب- يعني أن الفلسطيني لم يفقد إنسانيته ولم يؤمن بأي لحظة بفوقية.

الصهيونية في جوهرها تحقيق للعقلية التي ترفض الانخراط في أي مجتمع غير يهودي وهي تنبع من جنون الارتياب الأصيل في العهد القديم، كيف لليهودي أن يتعايش مع من يراهم أقل منه بشريةً؟ في المقابل انخرط الفلسطيني في الشتات بكل المجموعات وتعايش معها، والمشكلة اليوم هي ليست في هذا التعايش وإنما في نسيانه للحمولة الاستثنائية المطلوبة لاستعادة حقه بأرضه التاريخية. لذلك على الشتات أن يجيب هذه المعضلة بحذر، والأصح أنه أجابها سابقاً وقد عزمت على طرحها قبل الطوفان بسنوات لكن الأمر تطلب مذبحة كي يدرك الآخرون ما كان يمكن إدراكه من استشهاد طفل واحد قبل الطوفان. الخذلان إذاً هو ليس في ردة الفعل المتخبطة وإنما في ذوبانه المسبق في الدوائر المختلفة.

هذان المحوران، محور القرب والبعد عن الأرض ومحور القرب والبعد عن القضية، يتقاطعان ويتضاعف التعقيد في طبيعة التقاطع بينهما، إذا اتفق الفلسطيني معي في هذا الرسم البياني يمكنه استنباط المزيد من المعاني ولمس حدود الإطار الجديد الذي علينا أن نتعامل عبره مع أسئلة الشتات التي سأطرحها في تكملة السلسلة. أما في ختام هذا الجزء يجب الإشارة إلى أن الهوية قد لا تعني بالضرورة قيمة تزداد وتنقص وإنما إجابة واحدة في محور الأرض وإجابة ثنائية (نعم/لا) في محور القضية، نعم كل من أنجبته هذه المجموعة هو فلسطيني، لكن هذه الكلمة لا معنى لها إن لم يكن هناك ما يكفي من الفلسطينيين الحريصين على رفع الموجب في محور التضحية.

إذا أجاب الفلسطيني عن سؤال الحصرية بالنفي، أي إذا اعتبر أن قضيته هي قضية تنتمي لمجموعة أكبر وأهم من المجموعة الفلسطينية، فأنا أتطلع لسماع منطق هذه الإجابة وكيف تتعاطى مع المقالات التي كتبتها، وما هو المطلوب والعملي كي نوقف هذه الحرب أو نثأر لضحاياها ولكل الضحايا على مر القضية عبر تلك المجموعة.

بالنسبة لي أفضّل إجابة سؤال حصرية القضية بالإيجاب، فهذا لا ينكر أيّاً من الخصائص ولا يختزل القضية بجانبٍ دون آخر، فهي قضية عدل في جوهرها وحربنا مع العدو حرب وجودية لا تتعلق كثيراً بآراء الفلسطيني السياسية أو معتقداته الدينية، بل يمكن القول بأن العدل الواضح فيها يجعلها مقياساً للمعتقدات لا العكس، فما هو المعتقد البائس الذي يجعل كل هذا الظلم عادياً ومقبولاً؟ كيف لأي شخصٍ سويٍ أن يزعم أنه على حق إذا كان تفسيره للحق قد ترك أبناء عقيدته في هذا المأزق؟ سؤال الحصرية مهم للترتيب للخطوة القادمة، فإذا كان سابقاً يعلّق الآمال على الدوائر الكبرى التي تزعم أنها معه، فهو اليوم أكثر من أي وقت مضى يعلم أنه منبوذ وأن عليه التحرك بعقلية لا تعتمد على أحد بشكل تلقائي. وبما أنها قضية عادلة تجذب كل شخص سويٍ في العالم، لا مانع من بناء الجسور والتحالفات، هذا الكلام بدهي أيضاً قبل الحرب لكن العقلية السياسية العربية الرديئة قبل هذه الحرب حرّمت بعض التحالفات وما زالت تفعل كذلك بناء على تعريفات نرجسية للدوائر الكبرى، مما استدعى كتابة مقالة مطولة للتذكير بهذه البدهية.